الأوهـــام

يسقط مغشيًّا عليه وهو في غمرة انشغاله بعمله، كـان ينتظـر ليلـة الخميس بفارغ الصبر؛ لعزمه إقامة حفلة عائلية بمناسبة مرور سنة على ولادة طفله الوحيد... يُنقَلُ على الفور للمستشفى ... يحقـن بمسـكن ويوضع عليه محلول التغذية ... يُفْحَصُ ضغطه وتُرَاقَـبُ دقـاتُ قلبـه بواسطة جهاز تخطيط القلـب... في غمـرة غيبوبتـه يـرى نفسـه راكبًـا جوادًا أسودَ سائرًا في أرض صـلبة والسـماء تـزداد احمـرارًا... الأرض تهتز بين قدميه فيسقط من أعـلى حصـانه... يفـتح عينيـه ليجـد نفسـه مستلقيًا على السرير الطبي ولكنه ما يزال ما بين الـوعي واللاوعـي .. يسمع الممرضات المحيطات به يتكلمن...

- مسكين سيموت!

- هل أنتِ متأكدةٍ من ذلك؟

- لقد قال لي الطبيب بأن أيامه معدودة.

- ألا يوجد ثمة أمل في شفائه؟

- لا، للأسف الشديد!

- مسكين!

- هذا قدره، لقد مرت علينا العديد من هذه الحالات.

تغادر الممرضات الغرفة... يستعيد وعيه تمامًا...

- مستحيل هل سأموت؟ وهل أيامي حقًّا معدودة؟

لماذا سأموت!

هذه أول مرة أكابد فيها المرض.

أيعقل أن تنتهي حياتي بهذه السرعة!

يضغط على زر المناداة ... تأتيه إحدى الممرضات...

- أطفئي هذا الجهاز.

- لا يا سيدي، أنت بحاجة إليه!

- أطفئيه قلت لكِ!

تنفذ الممرضة أمره، يطلب منها سرعة الخروج... يمشي بخطوات متأنيًا إلى شرفة الغرفة ليفتح النافذة بصعوبة، يتنفس الهواء العليل بعمق بعيون دامعة...

يا إلهي ما الذي جنيته حتى تخبرني بموعد موتي؟

لماذا لا أموت وأعيش في غفلة مثل باقي البشر؟

ماذا أفعل الآن؟

كيف سأستقبل عالمًا جديدًا لم أعهده؟

كيف سأصبح نفسا مجردة من جسدها؟

هل ستكون نفسي- هائمة في عوالم الغيب والمجهول أم أنها ستحظى بالسعادة والراحة الأبدية؟

يتطلع إلى السماء الزرقاء...

- أخبريني أيتها السماء كيف هو الموت؟

يبكي بشدة ثم يجلس على الأرض من شدة التعب والإنهاك...

- زوجتي لا بد أنها سوف تتزوج من شخص آخر!

يا للمرأة الغادرة، ولكن لو كنت مكانها لفعلت نفس الشيء فلماذا أتهمها بالغدر وعدم الوفاء؟ ما هذه النرجسية التي تعصف بي؟

إن لها الحق في الزواج والتمتع بمباهج الحياة فلماذا أمنح نفسي- حقًّا وأحرم الآخرين منه؟

وابني هل سيزور قبري أم أن أعباء الحياة ستنسيه أباه الذي بذل الغالي والنفيس من أجل سعادته؟ ولكن هل أنا في حياتي ملتزم بزيارة قبر والديَّ؟

لم أزرهما منذ أعوام مضت فلماذا أعاتب ابني إذن؟

أصدقائي بعد انتهائهم من مراسم دفني وجنازتي هل سيذكرونني ويقرؤون عليَّ دعاء المغفرة أم أن متاهات الحياة ستلهيهم؟

ستسيطر عليهم حتمًا الأنانية، لم أبخل عليهم بشيء في حياتي ولكنهم بعد موتي سينسونني كما ينسون قطعة أثاث مهملة في بيوتهم.

الناس هل سأبقى يا ترى عالقًا في أذهانهم؟ وماذا قدمت أنا للناس في حياتي؟ لم أكن منشغلا إلا بنفسي، لم أنظر يومًا للمعدمين الذين يعانون من شظف العيش، لم أنظر قط للمحرومين الذين

يكابدون الأمرين من أجل الحصول على رغيف الخبز، فلماذا إذن أطلب منهم أن يتذكروني ويرتلوا آيات الرحمة على روحي المعذبة؟

وماذا عن أهلي وأرحامي؟ في حياتي لم أعتنِ بهم بل لم أكلف نفسي عناء زيارتهم حتى في الأعياد والمناسبات فلماذا أطالبهم بعد موتي ببري؟

كم أنا أناني ولع بحب نفسي، لم أكن أهتم بالآخرين بل كنت دائمًا مكافحا من أجل مصالحي واليوم أطلب منهم مداراتي وأن يبكوا على فقدي!

يقف ليمشي بضع خطوات ويستلقي على السرير ليستأنف البكاء والإحساس بالندم... تدخل عليه إحدى الممرضات.

- هل أنتَ بخير؟

- أرجوكِ دعيني بمفردي، لقد عشت طوال حياتي وحيدًا، وأريد أن أقضي ما بقي لي فيها من أيام معدودة بمفردي أيضًا.

- لماذا تتفوه بمثل هذا الكلام؟

- إنها الحقيقة يا سيدتي، الحقيقة التي أواجهها للمرة الأولى والأخيرة في حياتي البائسة.

يدخل عليه الطبيب...

- أهلا بك كيف حالك الآن؟

كما ترى يا دكتور، أنتظر قدري المحتوم الذي لا مفر منه!

- أي قدر هذا؟

- الموت يا دكتور، أليس هو القدر؟

- نعم إنه قدرنا جميعًا فلماذا تنتظره أنت بالذات؟

- دكتور لا تحاول أن تحجب عني حقيقة ما أعانيه!

- أي حقيقة هذه؟ عما تتكلم يا سيدي؟

- حقيقة موتي القريب.

- من قال لك هذا الكلام؟

- لقد سمعت الممرضات يتكلمن عني.

تجيبه إحداهن قائلة:

- لم نكن نقصدك يا سيدي، كنا نتحدث عن شخص آخر حالته خطيرة جدًا!

- ماذا؟

- نعم ... لم تكن أنت المقصود!

- دكتور أحقًّا ما تقولون؟

- بالتأكيد، أنت لا تعاني إلا من إرهاق شديد سببه العمل المتواصل.

تظهر على ملامحه السعادة وتغمره الفرحة، يطلب من الممرضات بأن يخلصوه من سائل التغذية.

- على مهلك ما زلت متعبًا!

كلا، أنا بخير، أريد أن أزور ذلك الرجل المريض الذي يصارع الموت.

يذهب إليه، يجده مستلقيًا على فراش مرضه وأجهزة الإنعاش تحيط به من كل جانب... يقترب منه ويقبله على جبينه.

- من أنت؟

- أنا شخص يعرفك.

- تعرفني! كيف؟

- لا داعي لأن أجيبك أنت متعب الآن.

- أشعر بأني لن أعيش طويلا.

- لا تقل مثل هذا الكلام، سيكون كل شيء على ما يرام.

- هل يمكنك مساعدتي؟

- بالطبع.

- أريد أن تكتب خطابًا لابنتي.

- ابنتك!

- نعم، إنها تعيش في الخارج مع زوجها منذ سنوات طويلة، ولكنها تتصل بي كل أسبوع، وأنا الآن ملقى على هذا السرير -كما ترى- وليس بمقدوري التحدث معها.

- لا تقلق يا سيدي.

هل تريد شيئًا آخر؟

- لا أريد أن أزعجك.

- أرجوك أخبرني بما تريد.

- كنت أرغب قبل موتي أن أوكل أحدًا من أجل تحويل منزلي ملجأ للأطفال، طالما أن ابنتي من غير المتوقع أن تعود إلى هنا مرة أخرى.

- ولماذا تفعل ذلك؟

- وما قيمة الحياة إن لم نقم بأداء عمل يسعد الآخرين؟

ـ صدقت، لماذا يدخل الإنسان للحياة ويخرج منها دون أن يحدث أثرًا؟ لماذا نعيش من أجل أنفسنا فقط؟ لماذا لا نعمل من أجل أنفسنا والآخرين؟

يخرج من المستشفى وقد عاهد السماء على أن يكون إنسانًا آخر لا يعيش من أجل ذاته فقط، بل ليرسم البسمة على الشفاه الذابلة التي تعاني الحرمان والقهر والبؤس.